المنهج العقدي للمذهب المالكي

الدكتور محمد المختار ولد باه

رئيس جامعة شنقيط العصرية

ملخص المداخلة بالعربية

تتعرض هذه المداخلة لموقف الإمام مالك من مسائل العقائد وأصول الدين، وعلاقة المالكية بمذهب أبي الحسن الأشعري، وخصائص هذا المذهب بالمشرق عند الباقلاني وابن مجاهد مثلا، وكيف انتقل إلى المغرب على يد عدد من العلماء كالإمام الأذري وغيره، وبعض المواقف لشيوخ المالكية في هذا الباب كالإمام القابسي وأبي عمران الفاسي والقاضي عياض، وعن جذور الأشعرية ودخولها إلى المغرب، حيث أنتجت كبار متقدمي المتكلمين على اعتقادات أهل السنة، كابن النعمة وابن الحوات والباجي وأضرابهم، وعلاقة الأشعرية بالمذهب المالكي، حيث إنه وإن انفصل المذهب عن العقيدة مع ابن تومرت والموحدين، ولكن مع الإمام السلالجي عادت إلى المذهب وتلازمت معه منذ الإمام السنوسي ومدرسته.

ملخص المداخلة بالفرنسية

La méthode dogmatique de la doctrine malékite

Cette intervention expose la position de L'Imam Malik vis-à-vis des sujets des croyances et les fondements religieux. De même, la relation de La doctrine malékite avec celle de Abi Al Hassan Ach'ari et ses spécificités en orient chez EL Baqillani et Ibn Mojahid. L'intervention met en lumière aussi le transfert de cette doctrine au Maroc, grâce à

certains Oulémas tels que L'Imam AL 'Adari et d'autres .Elle évoque aussi quelques positions de certaines grandes figures de la doctrine malékite comme L'imam AL Qabissi ,Abi Omrane Al Fassi et AL qadi Ayyad .D'un autre côté, il est question des origines de la doctrine Acharia et son introduction au Maroc qui était à l'origine de la formation de plusieurs thélogiciens conformes aux convictions des sunnites comme Ibn Niima, Ibn Al Hawatt, Al Bajji et semblables .Il est évoqué aussi la relation de Al 'Achaaria et la doctrine Malékite qui, quoi qu'ils se soient séparés, pendant l'ère d'Ibn Toumart et les Ahmomahades ,ils se sont réconciliés avec l'arrivée de l'Imam Slalgi, L'Imam Snoussi et ses disciples.

ملخص المداخلة بالانجليزية

Doctrinal Methodology in the Maliki School of Jurisprudence

This presentation deals with Imam Malik's position toward issues of creed and fundamentals of religion.It also deals with the relationship of the Maliki School with the creed of Abou Hassan Al-Achari .The characteristics of Maliki– School in the East as presented by Al-Bakalani and Ibn Moujahid ,and the way the Maliki– School spread in Morocco thanks to many scholars such as Imame Al-Adariand and other religious leaders ,the roots of the Ash'ari creed and the ways it spread in Morocco and produced great theologians such as Ibn-Enou-ema, Ibn Al-hawat and El-Baji ,and the interrelation between the Ash'ari creed and the Maliki School of Jurisprudence, in addition to other sub titles to be dealt with in this presentation.

المنهج العقدي للمذهب المالكي

1- رأي الأئمة في علم الكلام قبل الأشعري

أود أولا أن أنبه أن ما في هذه الورقة لا يعتبر بحثا بالمعنى العلمي، وإنما هو محاولة تذكير وتفكير في أصول الروابط التاريخية بين مذهب الإمام مالك وعقد الأشعري المعروف أنهما من ثوابت الفكر المغربي، إضافة إلى تصوف أبي القاسم الحفيد بن محمد البغدادي، فنقول وبالله التوفيق:

في عهد الإمام مالك لم تك مباحث أصول الدين علما مستقلا بذاته، ولا مدونا في منهجه، وإنما كانت مواده منتشرة في مسائل علوم السنة، مثل أحاديث أركان الإسلام، وشُعب الإيمان، وأحاديث الشفاعة، وأخبار المعاد من السمعيات، وهي الأحاديث التي دونت فيما بعد في أبواب التوحيد عند أئمة الحديث.

وأما مباحث علم الكلام ومعتقدات الفِرَق التي ظهرت في أواخر القرن الأول الهجري وأوائل القرن الثاني فقد كانت مرفوضة من طرف أئمة السنة، فكانوا يرون أن القدرية مجوس الأمة، وقد تبرأ منهم ابن عمر، وكانت الخوارج جماعة شاذة، أخبر النبي ﷺ أنها ستخرج من الدين كما يخرج السهم من الرمية، وصنف غلاة الشيعة الروافض بأتباع اليهودي عبد الله بن سبإ، وذُكر أن خصوم الشيعة المنكرين حق الإمام علي بن أبي طالب في الخلافة مما يعرف بالنواصب، واشتهرت قولة الشافعي بضرب المتكلمين بالجريد.

أما الإمام مالك فقد روى أن له رسالة في القدر، وأنه أخذ عن عبدالله بن هرمز علما لم يبثه، والصحيح هو إعراضه الشديد عن علم الكلام واحترازه

عند السؤال عن الاستواء على العرش، وكان من جوابه أن هذا السؤال بدعة وأن السائل رجل سوء.

غير أن القرن الثالث كان عصر المعتزلة بامتياز، وقد فرضت الخلافة العباسية معتقداتهم في خلق القرآن وفي خلق الأفعال، ولم يثن جماحهم إلا ظهور أبي الحسن الأشعري (ت333)، وردوده على نحلتهم.

2- ارتباط الأشعرية بالمذهب المالكي

وارتباط الأشعرية بالمذهب المالكي لم يتم في عهد الشيخ أبي الحسن الأشعري وإن كان بعض المصادر أورد أنه مالكي المذهب، إذ ترجمه القاضي عياض (ت544 ه) في المدارك، وأدرجه ابن فرحون (ت 799ه) في ديباجه، وكان له الفضل في ذكر بعض مؤلفاته التي لم ترد في العمدة ولا في وثائق ابن فورك، ومع ذلك فإن أغلب الظن أنه كان شافعيا؛ لأنه أخذ الفقه عن أبي إسحق المروزي (ت 340)، وقد يكون للسبكي (ت 771 ه) الحق في تعداده من أصحابهم، ولا ضير أن يسلم المالكية هذه الدعوى.

وأول من عُرف من أتباع المالكية أبو بكر الباقلاني (ت403ه)، وهو من أبرز الأشاعرة، والمعروف أنه من أئمة المذهب، كما يقال إن شيخه عبدالله بن مجاهد كان مالكيا كذلك، لكن من الواضح أن حَمَلة طريقة الأشاعرة أخذوها عن علماء ليسوا على مذهبهم الفقهي، فأبو الوليد الباجي(ت474ه) أخذ علم العقائد عن أبي جعفر السمناني (ت344ه) قاضي الموصل، وهو ليس مالكيا، وكثير منهم استمد أصول أشعريته من إمام الحرمين الجويني(ت478ه)، وهو من خصوم المالكية.

3- دور أبي عمران الفاسي (ت 430هـ) في ربط الأشعرية بأصول المذهب، وفي تأسيس دولة المرابطين

أما العالم الذي كان حلقة وصل بين المذهب المالكي وأصول الدين

على نهج الأشعرية فهو أبو عمران الفاسي الذي توطدت صلته بشيخه الباقلاني (ت403هـ)، وقد بالغ في إطرائه واستقل ما حصّل قبله مما روى عن الأصيلي(ت392هـ) والقابسي(ت403 هـ).

ويظهر أن أحد قرناء أبي عمران وأصدقائه، وهو المقرئ الكبير أبو عمر الداني (ت444 هـ)، شارك في هذا العمل، إذ ألف كتابه الرسالة الوافية. وحلى منهجه بمجموعة من قواعد العقائد الأشعرية.

أما أبو عمران فلم نر له كتابا مستقلا في علم الاعتقاد، وإنما أورد بعض من تحدث عنه مثل قصته مع أهل القيروان، في معرض عدم صحة إيمان من لم يعرف صفات الباري جل وعلا، وقد وقع فيها نزاع بين العوام، وقرر أبو عمران الفصل بينهم بضرب مثل يقول فيه: من وصف لكم أبا عمران وقال لكم إنه في سوق ابن هشام يبيع الحنطة والزيت ويسكن الصبرة، فهل تعرفونه؟ فقالوا: لا، فقال: وإذا قيل لكم إنه رجل يفتي الناس ويدرس العلم ويسكن قرب السماط فهل تعرفونه؟ قالوا: نعم، وكذلك من قال لكم: إن الله له صاحبة وولد، وأنه جسم وقصد بعبادته من هذا صفته فهل عرفه حقا بخلاف المؤمن الذي يقول: إنه الله الأحد الذي لم يلد ولو يولد ولم يكن له كفؤا أحد فقد عرفه ووصفه بصفته وقصد بعبادته من يستحق الربوبية.

وقد نجح في إيقاف النزاع بهذا المثل، كما أخذ من آرائه الفقهية عدم الاكتفاء بالتقليد في الإيمان.

ولا ننسى أيضا أن أبا عمران هو الذي عهد لتلميذه **وَكّاكْ بن زلو** بإرشاد وفد دولة صنهاجة التي ابتعدت عن العمل بالكتاب والسنة، فكان نتيجة ذلك تأهيل عبد الله بن ياسين ليكون الأب الروحي لدولة المرابطين التي انتهجت أشعرية أثرية لم تغلب عليها الأفكار البرهانية ولا الأدلة المنطقية التي صاحبت الفكر الأشعري فيما بعد.

وكان من رواد هذا العلم في الدولة المرابطية محمد بن الحسن المرادي الحضرمي(ت489هـ) دفين أزوكي، قرب أطار في بلاد شنقيط، ولا شك في أشعرية الإمام الحضرمي، ومما يدل عليه ما ذكر عنه في شأن الوليد النفزي الذي يقول إن ألفاظ القرآن غير مخلوقة، حيث قال عنه:

لا در در ســـــــخافة شنـــعاء جاء بـــها الوليد
أكلام ربي أحـــرف منظومـ ـــــة حمـــــر وســـــود
أو رنـة أو نـــغـــمة في الـسر أو صـوت مديد
إن كـــان هـــذا قولكم والحـــرف تحويه الحـدود
فـاعـبـد ثـلاثـة أحـرف من قبلها ألـــــف مزيد

ولقد ترسخ هذا الفكر الأشعري على يد ابن رشد (ت595هـ) الذي نعتقد أنه يميل إلى عقيدة ابن أبي زيد وآراء ابن عتاب، وهما ليسا على طريقة الأشعرية التقليدية.

4- أشعرية ابن تومرت (ت1128م) وانفصالها عن المذهب المالكي

أما الذي أقحم الاشعرية في المغرب فهو ابن تومرت الذي تأثر بمنهج الغزالي فوضع مرشدته وعممها على أصحابه، قبل أن يمزج آراءه بالفكر المهدوي والمعتزلي.

وابن تومرت هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الذي ذاع صيته إذ كان مؤسس دولة الموحدين التي حكمت المغرب والأندلس في القرن السادس الهجري.

اشتهر ابن تومرت بالذكاء والنباهة، وبتخصصه في العلوم الشرعية، لقد درس في الأندلس ورحل إلى المشرق، فقرأ على مجموعة من العلماء منهم ألكيا الهراسي صاحب الجويني، واختلف المؤرخون في صلته المباشرة بالغزالي، مع الاتفاق على تأثره بأفكاره العقدية.

ولقد ترك مؤلفا مشهورا بعنوان «أعز ما يطلب» ومما يتضمن عقيدته المعروفة بالمرشدة، ولعله استوحى اسمها من كتاب إرشاد الجويني الذي كان سائدا في عهده، وهي عقيدة مختصرة، ذات منحى أشعري واضح.

ويبدو أنه مزج معتقداته ببعض الآراء الخارجة عن أصول الأشاعرة، ومنها ما هو قريب من نظرية الشيعة مثل فكرة المهدوية، وعصمة صاحبها، وقد تلقب بهذه الصفة، ويحكى أنه توصل إليها بعدة وسائل غير عادية استعملها لإقناع العامة بتحليه بها، وللاستيلاء على الحكم والقضاء على دولة المرابطين، ومنها قوله: إن الصفات ليست زائدة على الذات وهذا أقرب إلى آراء المعتزلة.

وبما أن شخصية ابن تومرت يلفها نوع من الاضطراب الذي جعل الآراء تختلف حوله، فمن الباحثين من نسبه للشعوذة والضلال، واستباحة كل الوسائل لبلوغ أهدافه السياسية، ومنهم من يقول: إنه الإمام المصلح المربي ويؤكد مهدويته، وينشأ فيه لما وقف على قبره:

سلام على قبر الإمام المجدد ... سلالة خير العالمين محمد
ومحيي علوم الدين بعد مماتها ... ومظهر أسرار الكتاب المسدد
أتتنا به البشرى بأن يملأ الدنا ... بقسط في الأنام مخلد

5- عودة ا لتلازم بين الأشعرية والما لكية عند ابن العربي (ت 345هـ) والسلالجي

لقد ابتعدت أشعرية ابن تومرت عن المذهب المالكي، ونأت عن منهج أبي عمران الفاسي وسلفية ابن أبي زيد وهو المنهج المرابطي المقبول عند جمهور المالكية، والمعتمد من قبل ابن رشد الجد. غير أن العالم القوي الذي استطاع في هذه الفترة أن يجمع بين المالكية والآراء الأشعرية، هو الإمام أبو بكر بن العربي المعافري (ت 543هـ).

لقد قام ابن العربي برحلة إلى المشرق مثل ابن تومرت، وعاد بمعتقدات الأشاعرة، وبكتب إمام الحرمين، وبعض مؤلفات حجة الإسلام الغزالي، سواء منها ما يتعلق بأصول الفقه أو بأصول الدين، واستطاع نشرها بالرغم من استنكار فقهاء المرابطين لما ورد عن الغزالي في كتاب الإحياء الذي تعرض للإحراق، ذلك أن شخصية ابن العربي ودوره المتميز في إرساء قواعد المذهب المالكي خوّل له أن يعتبر إماما في الفقه وفي أصول الدين.

وكتبه في الأحكام وفي شرح الموطإ معروفة، لكن له أيضا آراء ومصنفات في علم الاعتقاد، منها ما هو في العواصم، ومنها قانون التأويل والمتوسط في معرفة صحة الاعتقاد والرد على من خالف السنة من أهل البدع والإلحاد. وقد تجرأ على انتقاد عقيدة ابن أبي زيد، واستنكر تلقينها للأطفال وتبنى مواقف الأشاعرة في تأويل ما يوهم الجهة أو التشبيه، وردّ على المعتزلة في خلق الأفعال، وعلى منكري المعجزات أمثال ابن الراوندي وأبي عيسى الوراق وأبي بكر الرازي الطبيب. والملاحظ أن مؤلفاته في التوحيد لم يتم نشرها إلى الآن بينما اشتهرت كتبه في التفسير والفقه.

ثم جاء بعده إبراهيم السلالجي بعقيدته البرهانية التي لم يأخذها من أصحاب الباقلاني المالكي، وإنما استمدها من إرشاد الجويني صاحب البرهان، وبسط فيها آراء الأشاعرة، وصحح ما مازجها عند الموحدين من أفكار شيعية ومعتزلية، ولقيت عقيدته قبولا بالغا وانتشارا واسعا.

6- ترسيخ الأشعرية عند ابن الحاجب والقرافي

أما في المشرق فقد أسهم في ترسيخ الأشعرية من المالكية عالمان كبيران من مصر وهما ابن الحاجب الذي صاغ عقيدته على منوال الفقهاء فأكثر فيها عبارات الترجيح، على طريقته في كتبه الأخرى في الأصول والفقه.

والثاني هو أحمد بن إدريس القرافي الذي امتاز داخل المنظومة الأشعرية

بآراء جريئة، منها ما خولف فيه مثل رأيه بعدم صحة القول بأن الصراط أدق من الشعر وأحد من السيف، ولعله استند على ما روي عن البيهقي أن هذه العبارة لم ترد في الأحاديث الصحيحة، ومع ذلك فإن أصحاب السنوسي انتقدوها إذ يقول أحمد المقري:

وللقرافي هنا كلام نيط به من أجله الملام

أما رأيه الثاني: فيتعلق بما هو قديم ومحدث من القرآن الكريم، وهو بحث في غاية الدقة، أورده ابن الأعمش في شرح الإضاءة. وملخصه أن ألفاظ القرآن كلها محدثة، وأن مدلولاتها تنقسم إلى قسمين، فمنها ما هو قديم، ومنها ما هو محدث، وقد نظم أبو علي اليوسي هذه المسألة قائلا:

إن القرافي شهاب الدين جزي خيرا ليس بالمجنون
أفاد أن في القرآن ما حدث وفيه ما قدُم إذ فيه بحث
فقال قولا ثبتت دلائله واضحة حجته وحاصله
إن الأدلة أي الألفاظا حادثة كلا فكن حفّاظا
وقسم المدلول وهو المعني إلى قديم وحديث يعنى
والكل إما مفرد أو سند وللأخير أيضا التعدد
فمنه ما يحكى عن الله وما عن الغير والإنشا فاعلما
فالمفرد الذي له وصف القدم ذاتٌ لمولانا ووصفه الأتم
وهكذا انشاؤه وما حكى عن نفسه سبحانه فاستمسكا
والمفرد الذي وصف الحدوث وصفه يسأل عنهما بَحوث
فقل له ذواتنا ووصفنا وزده ما يحكيه عنا ربنا
فهذه ستة أقسام على تناصف في الصفتين فاعقلا
ثم على خير الورى أصلي وآله والصحب أولي الفضل

7- تلازم الأشعرية مع الفقه المالكي في المنحى السنوسي

غير أن التلازم بين المذهب المالكي والطريق الأشعري توطد في عهد السنوسية التي جددت معالم المنحى الأشعري ونقلته من مرحلة الدفاع، والرد على الملحدة والمبتدعة، إلى ترسيخ القواعد بالأدلة المنطقية، وقد وضح هذا التحول في فكر السنوسي نفسه الذي خصص كبراه للدفاع، لكنه انتقل في الصغرى إلى إرساء البراهين، دون التعرض لآراء المخالفين، واتبع أصحابه نهجه في الصغرى التي صارت تعرف بأم البراهين، وتقرر أن تكون العقيدة الرسمية في المغرب العربي، وقد بسط أحمد المقري القول فيها في إضاءة الدجنة التي لخصها الإمام ابن عاشر في توحيده وجعلها مقدمة لمرشده المعين.

وقد صارت مقدمة ابن عاشر في التوحيد جزءا من الفقه؛ لأنها تتناول أول واجب على المكلف بأمور الدين، ثم تابعه الفقهاء في اختصارها، وكأنهم يحاذون في ذلك صنيع السنوسي (ت1134 هـ) الذي اختصر الوسطى من الكبرى، والصغرى من الوسطى، والحفيدة من الصغرى.

ومن الذين قاموا بهذا التقليص العلامة محمد مولود بن أحمد فال اليعقوبي الشنقيطي الذي خصص في مقدمة نظم الكفاف عشرين بيتا نصفها من عنده، والنصف الثاني من نظم الهلالي(ت 1175 هـ).

وفي هذه المقدمة أورد العلامة محمد مولود الإجماع على وجوب معرفة علم العقائد إجمالا، وذكر الخلاف في معرفة الأدلة هل هي فرض عين أم على الكفاية، وعزا الندب لابن رشد، وذكر الحظر مخافة ترسيخ الشبه، وبيّن أنه يكفي في التوحيد اطمئنان القلب بالإيمان حتى لا يجيب على سؤال الملكين بأنه سمع ما قال الناس فكرره، وقال: إن خير الأدلة ما خبّر به النبي الأكرم ﷺ وما انتهجه الصحابة، وما يراه ذوو الألباب من عجائب الخلق، ثم إن محمد مولود أحال إلى عشرة أبيات للهلالي سرد فيها صفات الباري المصطلح

عليها بصفات المعاني والصفات المعنوية، وما يستحيل في حقه، وما يجب في حق الرسل، وما يستحيل في حقهم، مبينا أن كلمة الشهادة تتضمن مجمل قواعد الاعتقاد.

وفي هذا النوع من المقدمات عند ابن عاشر والهلالي ومحمد مولود اليعقوبي امتزج التوحيد بالفقه؛ لأنه كما يقول أبو حنيفة: هو الفقه الأكبر، ولأنه يتضمن مبادئ الوجوب، وأُسس سلوك المسلم في تعامله التعبدي، وهذا تركز في الفكر الديني المغربي الذي استقرت ثوابته في عقيدة الأشعري من خلال النهج السنوسي، وفي فقه الإمام مالك من طريق مدونة ابن القاسم، وفي طريقة الجنيد (ت 298هـ) التصوفية.

وقد يكون دمج مبادئ التوحيد في الفقه تبسيطا لقواعده وتقريبا لها من الطلاب حتى يصير من مكونات الثقافة الإسلامية العامة.

لكن هذا الاتجاه واجهته معارضة تمثلت في عملين رائدين، **أحدهما**: ما قام به أحمد المقري في نظم عقائد السنوسي في نظم **إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة**، فصاغ أرجوزة بديعة في أسلوبها الشعري الجميل، وواضحة في معانيها، **والثاني**: عمل الطيب بن كيران والشيخ الوزاني في شرح توحيد ابن عاشر، حيث صنّفا موسوعة ضخمة في هذا الشرح ولم يحيدا عن نهج السنوسية الجديد، ولم يضيعا وقتهما في عرض آراء الفرق المبتدعة، وإنما رسخا قواعد الاعتقاد بمجموعة من البحوث المتعمقة في أصول الفقه السنوسي الجديد أضافت كثيرا من البيانات حول الضوابط والأدلة المعتمدة في إثبات مطالب براهين التوحيد.

8- شرح عليش للإضاءة وبسط آراء المغاربة في هذا الشرح

أما أرجوزة المقري فقد صارت المقرر الرسمي في المغرب عموما، وحظيت بكثير من الشروح والتعاليق، وممن شرحها الشيخ محمد عليش(ت1299هـ)

المصري، وعرف شرحه بالفتوحات الإلهية عن المنظومة المقرية.

ويمتاز هذا الشرح بأنه استوعب أقوال آراء المغاربة في مباحث قضايا التوحيد على طريقة الأشعرية:

فقد نقل عن العلامة محمد بن المختار بن الأعمش في مقدمة الأرجوزة، وعزا له في خاتمتها منع عزل الإمام إذا طرأ عليه الفسق بعد توليته. والعلامة ابن الأعمش المتوفى سنة (2011 هـ) هو أول شارح للإضاءة.

وفي مبحث خلق القرآن عند قول المقري:

والحرف والصوت كذا التلاوه محدثة وغير ذا غباوه

أورد جواب أبي عبد الله محمد بن عبد القادر الفاسي عن دلالة ألفاظ القرآن على المعنى الأزلي القائم بذاته تعالى، فقال إما أن يراد به الدلالة العقلية، وإما أن يتأول بأن يقال: القرآن مساو للمعنى القديم القائم بالذات، فيما دل كل منهما عليه وقد نحى هذا المنحى الثاني من التأويل شهاب الدين العبادي، فقال: كلامه تعالى صفة واحدة لها تعلقات تنقسم إلى أمر ونهي وخبر، ثم إن تلك التعلقات باعتبار الألفاظ الدالة عليها إلى القرآن وغيره من بقية الكتب المنزلة فهي باعتبار اللفظ العربي المخصوص قرآن وهكذا، فمدلول القرآن ليس هو الصفة الواحدة القائمة بذاته حقيقة، بل مدلوله تعلقاتها، وحينئذ يظهر أن مدلول القرآن غير مدلول الإنجيل، وهكذا ضرورة أن التعلقات المدلولة للقرآن غير المدلولة لغيره فإن فيه من الأحكام ما ليس في غيره وهكذا غيره. والقرآن يطلق على ثلاثة معان، وهي:

أولا: كلام الله القائم بذاته سبحانه، ويستحيل خلقه عقلا.

ثانيا: اللفظ المنزل على **محمد عليه الصلاة والسلام** ويحرم القول بأنه مخلوق شرعا، وأورد على سبيل المقارنة أن لفظ الإنسان ورد في القرآن الكريم

في ثمانية وعشرين موضعا وقيل إنه مخلوق، وورد لفظ القرآن في أربعة وستين موضعا ولم يذكر أنه مخلوق، وجاء ذكرهما معا في آية فنسب الخلق إلى الإنسان ولم ينسبه إلى القرآن، وذلك في قوله: ﴿الرحمن علم القرآن خلق الإنسان﴾.

ثالثا: القراءة، فإنها مخلوقة.

• ونقل عن ابن العربي المعافري (ت 345هـ) أن نار الدنيا ما أخرجها الله تعالى إلى الناس من جهنم حتى غمست في البحر مرتين، ولولا ذلك لم ينتفع بها أحد من حرها، وكفى بهذا زاجرا، وبعد أخذ نار الدنيا منها أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم ألف سنة حتى احمرت، ثم ألف سنة حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة وحرُّها مهلك محرق، ولا جمر لها سوى بني آدم والأحجار المتخذة آلهة من دون الله قال تعالى: ﴿يا أيها الذين ءامنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة﴾.

• ونقل عن اليوسي (ت1111 هـ) في مسألة وجوب النظر أن في حكمه ثلاثة أقوال: **أحدهما**: وجوبه على الأعيان، **وثانيها**: أنه على الكفاية، **والثالث**: ندبة، ولا قائل بتفوق الإيمان عليه غير ما حكاه العلائي(ت 167هـ) عن الاستفرائيني، وتكلموا عليه حتى قال الغزالي: سفهت طائفة فكفرت عوام المسلمين، وزعموا أن من لم يعرف العقائد الشرعية التي حرروها فهو كافر، فضيقوا رحمة الله وجعلوا جنته الواسعة مخصصة لطائفة يسيرة من المتكلمين.

• وفي معرض ذكر واضع علم الكلام، أتى بأدبيات لمحمد بن الحاج(ت 178هـ) في أرجوزته في التوحيد في قوله:

واضعه هو الإمـام الأشعري أتى به من كل شبهة بري
أمـــره بـــه الـــرســـول رؤيـــا فـكان أحسن الإمـــام رأيـا

وأورد جواب ابن سعيد بن لب لليهودي أو الزنديق، ومنه قوله:

قضى الله كفر الكافرين ولم يكن ... ليرضاه تكليفا لدى كل أمة
نهى خلقه عما أراد وقوعه ... وإنفاذه والملك أبلغ حجتي
فنرضى قضاء الرب حكما وإنما ... كراهتنا مصروفة للخطيئة
فلا ترض فعلا قد نهى عنه شرعة ... وسلم لتدبير وحكم مشيئة
دعا الكل تكليفا ووفق بعضهم ... فخص بتوفيق وعم بدعوة
فتعصى إذا لم تنتهج طرق شرعه ... وإن كنتَ تمشي في طريق المشيئة
إليك اختيار الكسب والرب خالق ... مريد لتدبير له في الخليقة
وما لم يرده الله ليس بكائن ... تعالى وجل الله رب البرية
فهذا جواب عن مسائل سائل ... جهول ينادى وهو أعمى البصيرة
أيا علماء الدين ذمي دينكم ... تحير دلوه بأوضح حجة

وأبيات اليهودي معروفة يقول فيها:

أيا علماءَ الدين ذِمِّي دينَكم ... تحيرَ دُلُّوهُ بأوضح حجة
إذا ما قضى ربي بكفري بزعمكم ... ولم يرضه مني فما وجهُ حيلتي

• ومن المغاربة الذين نقل الشيخ عليش عنهم: العلامة الطيب بن كيران، ومن ذلك ما أورده ابن كيران حيث قال: وإذا علمت أن الكل بإرادته حتى الفتن والكفر والمعاصي وإيلام الأطفال والبهائم، فاعلم أن له في طي ذلك حِكَما لا تحوم حولها العقول، فسلم تسلم وإياك أن يخالج قلبك شيء من الاعتراض وتقول: لِمَ كان أو لِمَ لَمَ يكن وتقع في الحيرة التي وقع فيها ابن الرواندي، احد زنادقة الإسلام إذ قال:

كم عالم عالم أعيت مذاهبه ... وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الأوهام حائرة ... وصير العالم النحرير زنديقا

ولقد أجاد من رد عليه بقوله:

كم من أريب فهم قلبه مستكمل العقل مقل عديم
ومن جهول مكثر ماله ذلك تقدير العزيز العليم

9- دور علم الكلام اليوم

لنا أن نتساءل اليوم عن دور علم الكلام في المنظومة الفكرية العصرية؛ إذ الملاحظ أن التجديد في ساحته قد توقف منذ نحو قرن.

لنستعيد أولا جواب أهل علم الكلام.

لقد اعتاد مؤلفوهم أن يبدؤوا مصنفاتهم بعشر أجوبة عامة تقدم بين يدي المؤلف في كل علم، وهي: اسمه، وحدُّه، وموضوعه، ومادته، ومسائله، وفائدته، وفضله، وحكمه، ونسبته إلى العلوم الأخرى، وواضعه، وهي التي نظمها المقري في قوله:

من رام فنا فليقدم أولا علما بحده وموضوع تلا
وواضع ونسبة وما استفد منه وفضله وحكم يعتمد
واسم وما أفاد والمسائل فتلك عشر للمنى وسائل

ثم إنهم يثقون أن علم الكلام أشرف العلوم وأرفعها؟ لأن موضوعه العلم بالباري جل جلاله، وينشدون في ذلك الأبيات التالية:

أيها المغتذي لتطلب علما لك علم عبد لعلم الكلام
تطلب الفقه كي تصحح حكما ثم أغفلت منزل الأحكام

لكن هذه المكانة التي أعطاها المتكلمون لاختصاصهم ليست محل إجماع، فقد رأينا آراء الأئمة في نشأته التي تمثلت عندهم في بروز الفرق المبتدعة مثل القدرية والجهمية والخوارج.

ولم يزل أهل السنة يبدون نوعا من التحفظ اتجاه علم الكلام، ويذكرون أن أعلامهم يعترفون بضرورة هذا التحفظ لأن ضره قد يكون أكثر من نفعه، كما يقول الغزالي الذي يريد إلجام العام عنه، وكما يقول فيه الرازي (ت 606هـ):

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا قد قيل وقالوا

أما الإصلاحيون والمفكرون الإسلاميون فقد ابتعدوا عنه وأخذوا اتجاهين مختلفين:

• **أحدهما**: ما يعرف باصطلاح السلفية التي بدأت بالدعوة إلى العودة إلى الأصول النقلية، والتمسك بظواهرها، فرفضت التأويلات الكلامية، والرموز الصوفية، ثم حملها هذا الرفض على اعتبار كل تجديد في أمر الدين أو في كثير من النظم الحكمية ابتداع يجب رده، وضلال تجب محاربته، ورأت طائفة منهم ضرورة الجهاد ضد جاهلية العصر وضد الغزو الغربي التي تتزايد عداوته للإسلام، غير أنهم في هذا التصرف لم يتقيدوا بضوابط الجهاد الشرعية، ولم يَزِنوا عواقب الفتن الناشئة عن تصرفاتهم المتطرفة.

• **والثاني**: هم المسلمون العلمانيون الذين يعتقدون بضرورة الأخذ بمعطيات الحداثة العصرية، وإصلاح النظم الحكمية وإخضاعها للواقع والتحرر من جمود الفقهاء على النصوص القديمة التي لم تعد صالحة للتطبيق اليوم. وهذا ما يقودهم إلى اعتبار الدين أمرا شخصيا بين العبد وربه. ومنهم من حاول نزع القداسة عن نص القرآن الكريم، وأراد إعادة قراءته ونقده على غرار ما قيم به من نقد النصوص الدينية الأخرى ولا حاجة للتنبيه على فكر الاستلاب والنفوذ الغربي الدافعين لهذا الاتجاه.

ويحاول الوسطيون اليوم أن يشقوا طريقا بين الفريقين. طريقا قوامها التمسك بالثوابت النقلية، ومنها الحكمة التي أنزل الله مع الكتاب على عبده، والتشبث بأوامر العدل والإحسان، وبنواهي المنكر والفحشاء والبغي، وحسن الاجتهاد في المتغيرات المتلاحقة، والسعي إلى الأفضل والأرقى لنيل صلاح الدارين.

فهل لهؤلاء الوسطيين أن يأخذوا من طريق الجنيد سلوكا وفضائل أخلاق تقاوم فوضى الفساد، وأن يغنموا من المذهب المالكي مصادره في الأصول، ومرونته في تطبيقات الفروع، وأن يستفيدوا من الخطاب الأشعري دقة استدلاله المنطقي في التقويم، ومنهجه في وضع التوازن بين العقل والنقل؟.

إنها أسئلة تنتظر الجواب والله ولي التوفيق إلى سواء السبيل.